أقصوصة من ه . ستاكبول

أحلام فضـــية

للأستاذ دريني خشبة

من نجوة[1] (بون بك) يشرف الناظر على مرأى عجيب من رؤوس الأيك النائم فى الغابة ، والحياة الدائبة الصاخبة فى الوادى، وأبراج (تور) المنطبعة فى أديم الأفق ، والشعاب الملتوية بين الدوح الجبار ... ثم ... هذه الرقائق من الفضة تنساح فى مجرى اللوار ، راقصة على رنين النواقيس من ثيروفلاى ، مضطربة تحت أقدام أرليان ، متلاشية فى لانهائية البعد مما يلى المنبع ... فى شعاف السِّفِنْ

ومع ذاك ، فلم يكن فوق بون بك غير ستديانات أربع ، منهن دوحة جدّة ، عظيمة الجذع ذاهبة الأفنان ، وإن يكن قد نخرها الزمان ، ونامت قرونه فى الكهف الكبير الذى احتفرته فى أصلها ... ثم شجيرات حفيدات تينع فى الربيع ، وتنضر فى الصيف ، وتتجرد فيما سوى ذلك من فصول السنة . ولم تغير الثورة شيئاً من معالم هذا الغاب ، على كثرة ما غيرت من معالم فرنسا ، فهذا هو العم العجوز المتداعى « چين كابوش » ما يزال يقطع الخشب من الغابة ويُحمّله إلى شانود نيڤر ، وما يزال يعالج الشجر ويصيد الأرانب ، ويؤدي الأعمال التى كان يؤديها أبوه وجده من قبل ، والتى كان يؤديها آباؤه الأولون ... وإن له لآباء أولين يتلاشون فى لانهائية الأزل ، كما يتلاشى اللوار في ظلام السِّفِن ... فاذا قدر لك مرة أن تلقاه فى أحد شعاب الغابة ، لقيت رجلاً من القرون الغابرة لا يعرف عن زماننا شيئاً ، ولا تربطه بالعصر الحديث رابطة ؛ وكذلك تلقى بنته الجميلة الساذجة العذراء مارى ، التى إن حدثتها حدثت قطعة من الغابة لا تدرى ما وراءها ... على أنها مع ذاك تصبيك وتفتنك ، وتسحرك بجمالها العميق اللغوز ، وتتأرّج فى نفسك وقلبك كما تتأرج البنفسجة الفيحاء ، لا تدرى من أين يسبيك جمالها

أما أبوها — العم چان — فقروى — لا ، بل ريفى قح ، يحسبه من يلقاه نابى الذوق ، جافى الطبع ، لأنه لا يعرف قوانين التقاليد التى تفرضها حياة المدن على سكانها ، ومن هنا عدم تمييزه بين طبقات الناس ، فهم جميعاً سواء عنده ، حتى رئيس الجمهورية الذى كان يجوب غاب ڤيروفلاى مرة ، فلقيه فحياه ؛ وكان چان يحتسى كأساً من الخمر ، فلم يلتفت للحاكم الأعلى حتى أتى على النُّطف الأخر فى الكأس ، وبعد أن مسح فمه بكمه ، ونجشأ وتمطّق ، قال للرئيس : « أجل ، أعرف أنك الرجل الذى يختاره الفرنسيون ليمثل دور الملك فى باريس ! » . وماذا تنتظر من تجّاع أحطاب وإنسان غاب أن يقول غير هذا؟

وربما كان للأسطورة التى تناقلها آل كابوش أباً عن أب ، وجداً عن جد ، فى طويل الأزمان والآباد ، أثر فى هذه النعجهية التى تبدو أحياناً فى أخلاقهم . ذلك أنهم كانوا دائماً يفخرون أن ملك الغابات فى الزمن القديم كان رئيس قبيلتهم ... فإذا كلم چان رئيس الجمهورية بهذه اللهجة ، فأحجى بالرئيس أن يشكر الله ، لأنه فرد عادى جداً إذا قيس بجان سليل ملوك الغاب ! !

* * *

ما كان أجملَ الأصيلَ فوق البون بك وقد جلست مارى الساذجة فوق العشب الحلو ، تحت السنديانة الكبيرة ، تعمل بأبرتها في جورب الصوف الخشن الذى كانت تبيع ما تصنع منه فى نهاية كل شهر لبازين العجوز تاجر الملابس فى بورجه ! لقد كانت تتحدث إلى عنزها المربوطة فى جذع السنديانة كلما ضجرت من العمل ، كما كانت تغنى بصوتها الرنان الجميل فتغمر

(١) النجوة والنجا والمنجى والنجو ما كان أكبر من الربوة وأصغر من الجبل

الغابة المنتشية بألحانها ، وتمتلىء أجواء الوادى الساكن بأغانيها الطورينية الحبيبة ، التى لم تعرف النوتة ، ولم تأخذ طريقها إلى البيان ، بل احتفظت بريفيتها المقدسة لتخرج من فم مارى ، كما تخرج موسيقى الملائكة من قدس السماء !

ما كان أجمل الأصيل فوق البون بك حين جلست مارى فوق عشبه ، وقد أخذ الخريف يواسى الناس بأنفاسه الربيعية ، وقد راحت مارجوت — المنز السعيدة — تقضم الحشيش الحلو مرة ، وتصغى إلى غناء مارى أخرى ... ومارى ، فيما بين هـذا وذاك تعمل أناملها فى الجورب الذى أوشك أن يتم ، لتتم به الاثناعشر جورباً ، ولتنطلق بها فتاة البون بك إلى التاجر بازين فتتسلم منه ثمنها ، وتعود بالحلوى والفطير فتملأ فم مارجوت !

لقد جلست مارى تعمل وتغنى ، بينما كان السادة الباريسيون أصحاب الفيروفلاي ، وأصحاب قصرها المنيف المنيع الذى تأخذه العين فى أفق الغابة فترى منه أبراجه الشواهق ، يصيدون الأرانب فى المتانه والمساريب ، ويطلقون بنادقهم على القنافذ والثعالب ، فتتردد طلقاتها فى أذنى مارى ، وتثير فى قلبها الصغير شتى الهواجس والأفكار ...

« الإبرتان الشقيتان !! » هكذا كانت الفتاة تفكر ...

« لا بأس ، صبراً يابازين صبراً ، ها قد أوشكت أفرغ من هذا المتاع الذى تشتريه منى بفرنكات معدودة لاتكاد تكفى ثمناً لمسح حذاء واحدٍ من سادتنا ... أوه ! يالك من عقدة خبيثة ! إذهبي إلى الشيطان ! ألا ما أصعب إصلاح العقدة المختلطة ! إنها كاللغز الذى لايمكن حله ! ما هذه الطلقات النارية ياسادة ! ! إرحموا الثعالب والأرانب ، وارحموا أبى جان المسكين ! ماذا يصيد هو إن لم تبقوا على أرنب واحد ! هذا بلاء والله ! أوه ! وارحمتاه لك يا أبى ! إن صيد أرنب أو أرنبين أيسر عليك من قطع عسلوج واحد مع فرق ما بين الأجرين ! الأغنياء ! الثروة التى لايحصيها عد ! ... ... الخ ... »

وسمعت الفتاة صوت بوق يُدَوِّى فى آفاق الغابة شغلها عن إبرتيها ، وعن غنائها ، وعن مارجوت ... وعن كل شىء ... حتى عن هذه السلسلة غير المنتظمة من الأفكار الفضولية التى كثيراً ما تزدحم بها رؤوس الناس ، لأنفه مايثيرها من الأسباب

وأرسلت عينيها فى شعاب الغابة مرة ، وفى مسايل اللوار أخرى ، فرأت السادة الأغنياء قد فرغوا من صيدهم ، وقد حمل خدمهم أحمال القنص على خيول ضخمة ، وانطلق الجميع بعدون نحو القصر المنيف ، كما تعدو السمادير أمام العين العشواء ، وكما تنطلق أحلام النائم فى كل صوب ... حتى غابوا عن بصرها

وعادت مارى إلى إبرتيها بعد إذ ثابت إلى نفسها ... وبدأت تعمل وتغنى من جديد ! ولم تكد تفعل حتى سمعت صوتاً حنوناً يهتف بها ، فأرسلت عينيها فى كل حدب ، ولكنها لم تر أحداً ... وارتبكت هذه المرة ، وحاولت أن تعمل ، ولكن العقد اختلطت أكثر من ذى قبل ، وعاد الصوت الحنون يهتف وينادى ... ونظرت مارى ، وبحثت بعينها فى كل مكان ، فإذا بنبيل من السادة الصيادين يناديها فى السفح البعيد ، ويشير إليها بيده الآمرة أن تذهب إليه

لم تتحرك مارى ، بل ظلت ساكنة صامتة ... وكأنما غيظ النبيل من سكوتها ، فنمز حصانه الكبير غمزة فانطلق يطوى النجوة صعداً فى غير مبالاة ، كأن الدنيا بأسرها ملك له ولأجداده الخيول من عهد عاد ! حتى الخيل تعرف الصفاقة أضعاف مايعرف النبلاء !

لقد كان رجلاً عملاقاً له مهابة وفى عينيه نُبْل ، وله لحية خفيفة فوق صدغيه قد وخطها الشيب فجعلها سنجابية حائلة كلون السحب فى أوائل الخريف ... وكان عريض المنكبين بارز الصدر واسمه ، عظيم القامة ، يشغل الناظر إليه عما يلبس من غريب الثياب التى تتخذ للصيد فى غاب فرنسا ... فلا خافية النسر التى راح النسيم يداعبها فوق مفرقه ، ولا الجوارب الجلدية وما فوقها من أخفاف ، ولا هذه السراويل الفضفاضة التى تغطى ظهر الجواد ، ولا تلك القفازات اللامعة التى تحجب يديه ، ولا هذه النياشين التى تتوهج فوق صدره ، والقلائد الذهبية التى تتحوى حول عنقه ... لا شىء من هذا أو ذاك قد بهر عينى مارى كما بهرها هذا الجسم المرقلى ، وذاك الوجه الصارم ، والرجل المملاق !

واقترب الجواد بمن عليه ...

وتبسم النبيل وكأنما كانت الدنيا كلها تبتسم معه ، وحيَّا مارى ، ثم قال :

— « قصر فيروفلاى ياجميلتى ! قصر فيروفلاى ! أتستطيعين أن تدلينى عليه ، أو تعلمينى الطريق التى أسلكها لأبلغه ؟ لقد ضاعت

سبيلي في شعاب غابتكم المضلة ، فهل لك في أن تصحبني، ياغادة ؟ »

لقد نظر النبيل إلى مارى فحمد الله والصدف أن ضلت سبيله ، ليلقى هذه الجنّية الريفية الحسناء في هذا الأصيل الجميل من أصائل الخريف ، وفوق هـذه النجوة الناضرة المطلة على الغابة الشاسعة جميعاً ... ولقد كان يبلع ريقه مرة بعد أخرى وهو يكلمها ، وكان يكلمها بعينيه الجائعتين ، أكثر مما كان يكلمها بلسانه اللاهث الظامىء ، وكان يحس قلبه وهو يخفق ويخفق ، كأنما يبتغي أن يثب إلى عينيه ليشبع من مرءى ماري هو الآخر ! ! يا لسحر الجمال ! لقد عجب النبيل كيف عاش عمره الطويل الفم بلا حب ، وفي الدنيا العريضة مثل هـذه الفتاة التي تسجد تحت قدميها القلوب !! لقد جعل جسمه يرتجف فوق الجواد ، وجعل يقلب عينيه في الفتاة التي انعكست على وجهها آراد الشمس الغاربة فصبغته بالذهب ، وتركت في جبينها وخديها سَقْماً من اللهب يشبه الشفق ، يزيده فمها الصغير الخبيث اشتعالا !

« أوه ياسيدى ! إنه هناك وراء هذا الدوح ، وهو قريب جداً من هنا ... أنظر ... ها هي ذى أبراجه تلوح وراء الغصون العارية ... ثم هاهي ذى الطريق واضحة بينة ! »

وكانت مارى قد نهضت من مكانها وهي تقول ماتقول ، وتشير بيديها ، فينحسر الكُمّان عن مرمر الذراعين اللدنتين ، وطرف الثوب عن جزء من الساقين الجميلتين ، فيجن جنون النبيل الجليل !

وفي الحق ... لقد خفق قلب مارى هو الآخر ، لأنه أحس بما ينبعث من عيني الرجل من الصبوة والشغف ... وما كان يسيل في ألفاظه من الرقة والضراعة ، وإن لم يعبر عنهما إلا بهذا الروح الذى يُفهم من غير أن يُرسم ! !

ووثب الرجل من فوق جواده ، ووقف قريباً من مارى ، ثم راح ينظر في الأفق ويتعاشى ويقول :

— « أجل ... ها هي ذى أبراجه ! ولكن أنّى لى أن أهتدى إليه في غابتكم المضلة ... تعالي يا صغيرتى فدليني عليه ... إني أخشى أن أبيت ليلي في الغابة مع أرانبكم وثعالبكم ! »

— « بكل سرور يا سيدى ... لا أحب إلى من أن أفعل ... هلم ! »

— وهذه المعز ؟ أتتركينها هنا ؟

— « أوه ! ان ما رجوت ستنتظرني هنا ياسيدى ! وأين تذهب ما لم أعد اليها ... ثم هي مربوطة مع ذاك ! »

— « اذن ، هلمى ! »

وانطلقا نحو السفح ، ثم مضيا في طريقهما ... هي الى جانبه ، أو في ظله ! وهو ، وحصانه من ورائه ، ينظر صامتاً .. ساكناً

* * *

وفكرت مارى في اللهجة التي كان يكلمها بها فشاع فيها نوع من الزهو ، ثم اتسع خيالها فوثقت أنه أحبها ، بل هو يكاد يعبدها ، وكان هذا الاحساس يملأ الدنيا في عينيها سعادة ، وفي قلبها بهجة ... وعرفت من ثيابه ومن منطقه أنه ليس من هـذه الجهة من جهات فرنسا ... قد يكون ضيفاً على آل فيروفلاى ... على كل حال هو ليس من هذا الأقليم ...

وأخذ الرجل يخلق الأحاديث ليسمع صوت ماري ... هذا الصوت الموسيقي العذب الذي كان يملأ سمعه وينفذ إلى أعماق قلبه كأنه رنين القُبل ! وكانت هي تجيب في ظرف وتيه وأدب ، فتخلب لب الرجل ، وتذيب نفسه الوامقة بما تكسر من مخارج الكلمات ، وما توشي في أواخر الجمل ، كأنها الربيع الفينان ينثر ورده ورياحينه في أكناف الحديقة ! !

ولقد كان القصر على بعد فرسخ أو نحوه من النجوة ، ولقد كان قصراً عتيقاً من عهد شارل التاسع ، ولكن الغابة كانت مع ذاك أقدم منه عهداً ... بل كانت هي هي الغابة منذ كانت هناك غابات في جنبات فرنسا ، ومنذ كان جد مارى ملكا عليها في بطن الأزل !!

وذكرت مارى هذا الجد الملك ، فسرى في أعطافها الكبر القديم الذي ما يفتأ يسرى في أعطاف آبائها وأهلها ... وللحال آمنت أنها جديرة بقلب هذا النبيل ، وأنه سيكون فخوراً بها !!

ونظر النبيل إلى جنبات الغابة فتغيرت في عينيه صورتها الجافة الخريفية التي انطبعت فيهما منذ الصباح ، وصارت جنةً فيحاء آهلة بالحور العين أمثال اللؤلؤ المكنون ، منضورة بالورد عبقة بأريج الرياحين كهذه الجنة التي وعد المتقون ! لماذا ؟ لم يدر الرجل ... لكنه كان يؤول كل ذلك بوجود مارى الجميلة إلى جانبه ... ماري ، التي غيرت نظرته إلى الحياة ، فجعلتها مشرقة باسمة ، بعد أن كانت قطريراً كالحة ، لا تصلح لهذا العبث الذى كان يقرأ عنه في الكتب ، والذى سماه الشعراء بالحب ...

ولم تزل مارى تسلك بالرجل في هذا المنعرج وذاك المنعرج ، ولم تزل تسير به في متاهة كثيرة ، وتخطو به في فجاج كلهن مصائد

ونفاخ نصبها أبوها للأرانب ، حتى وقفا آخر الأمر لدى بوابة عتيقة ... هي من غير شك أعتق من القصر الذى تؤدى إليه وأذهب منه فى البلى

وكانت البوابة صغيرة واطئة ، فصاحت مارى فجأة وهى تقول : « أوه يا سيدى ! لن يستطيع حصانك أن يدخل من هنا ... أوه ! لقد نسيت ، ليتنى ذهبت بك إلى باب القصر ! »

فتضاحك النبيل ثم قال : « ليس هذا شيئاً ... إنى سأربطه هنا ، وهو ينتظرنى كما تنتظرك ... ما ... ما ... ما اسم عزك ؟ »

— مارجوت يا سيدى

— مارجوت ! إى والله مارجوت ... ولكن ما سنك يا ... عزيزتى ؟

قال ذلك وقد أرسل أصابعه المرتعشة تربت تحت ذقنها الجميل وعينيه المشوقتين تسبحان فى جمالها الريان !

— أنا ؟ سنى ست عشرة سنة !

— ما شاء الله ! سن فينانة ! واسمك إذن ! ؟

وقال ذلك أيضاً بعد أن صعد آهة عميقة كادت تحرق بحرها صدره

— مارى ... مارى يا سيدى !

— مارى ! مارى ! وحسب ! ؟

— مارى كابوش يا سيدى !

— مارى كابوش ... حسن جداً ! مارى كابوش اسم جميل ظريف ، بيد أننى سأطلق عليك من الآن اسم (زهرة الغابة !)

ثم تقدم فأخذ رأسها الصغير فى يديه المتخاذلتين ، وطبع على جبينها قبلة عميقة حارة ، استودعها كل أمانى حبه ، ثم دس يده فى جيبه وقال :

— «والآن ... تقبلى منى هذا القليل ... من ... الذهب ... للذكرى ... لا للفائدة ! » ولما نظر فى حافظته لم يجد بها إلا قطعة فضية واحدة ... وحدجته مارى بعينين جريئتين ثم صاحت به فى رقة وحب : « أوه ياسيدى ! ليست بى حاجة إلى نقود فأذكرك بها ... إنى سأذكرك إلى الأبد ... لن أنساك ! »

وامتلأت عيناها بالدموع فجأة ... وأحست بقلبها يرتعد ويخفق ... وودت لو استطاعت فهربت فى شعاب الغابة ، لولا أنها نظرت إلى الرجل فوجدته مثلها تملىء العينين بالدموع ... وصدره يعلو ويهبط ، آيةً على مافيه من مثل مافى قلبها !

— ليس فى حافظتى إلا هذه ... لتكن تذكاراً منى على كل حال !

— تذكار أحتفظ به إلى آخر رمق فى حياتى ياسيدى !

— « أوه ! دائماً ياسيدى ياسيدي ! ناديني باسمى المجرد يامارى ! أنا أدعى هنرى ... ! ليت لى مثل سنك يامارى ! ليت لى مثل سنك ! »

— حسبك قلب مثل قلبى يا ...ه ... ه ...

— هنرى ... ! ماري ... ماذا بك ...

وجعلت الفتاة تبحث الأرض بعينيها مرة ... وتحدق بهما فى وجه هنرى مرة أخرى ... ثم تناول الرأس الصغير مرة ثانية فطبع عليه قبلتين حملتا سر قلبه ، وودعها وهو يقول لها :

— هنا يامارى يجب أن نلتقى الليلة بعد أن يشرق القمر !

وأومأت مارى برأسها الصغير ... وانطلقت تعدو كالمجنونة فى ظلام الغابة ...

* * *

ولم تفتأ مارى تستعيد الذكريات الحبيبة التى لم تمض عليها هنيهات ... ولم تفتأ تردد هذه النداءات الجميلة « يا حياتى ... يا صغيرتى ... أوه شيرى ! ! يا عزيزتى ... إلى هذه المترادفات التى يعتلى بها قاموس الحب ، وألواح النزل الإلهية المقدسة ... هل هو حلم ؟ !

نبيل من أماثل نبلاء فرنسا يحب هذه الريفية الساذجة التى لا قيمة لها إلا مسحة من جمال ؟ هذا النبيل العظيم الذى يملك أن تكون له جنة من حسان باريس ، تشغفه هذه الفروية من بنات الغاب ؟ بل هو حلم ... بل هو حلم !

وعادت إلى البون بك ففكت رباط مارجوت ، وحملت سلة أشغالها ، وعادت أدراجها إلى كوخ أبيها مصدعة القلب ، واجمة الروح ، كاسفة البال ، لا تفكر إلا فى هذه اللحظة التاعسة التى لقيت فيها هذا النبيل .. أو لم تلقه .. لأنها ظنت أنها كانت تحلم !

وأقبل أبوها فأعدت له عشاءه فالتهمه ، ثم انبطح على فراشه الخشن فلم يلبث أن نام ، وراح يغط فى سبات عميق

وجلست هى فى غرفتها تجتر أحلامها ، وتصور الحادث الأكبر الذى زعمته حدث لها ... ولكن رنين القبل على ... جبينها .. ! كان ما يزال يرن ويطن .. والنداءات المزلية كانت ما تزال تتردد فى مسمعيها ...